القدس في شعر العماد الاصبهاني

أ. م. د. زكية حسن ابراهيم الدليمي

كلية الاداب / جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو ا لله وعدوكم﴾

صدق الله العظيم

سورة الانفال آية (٦٠)

المقدمة :

حظيت مدينة القدس عامة والحرم الشريف على وجه الخصوص باهتمام العديد من العلماء والباحثين والمؤرخين والجغرافيين والادباء قديماً وحديثاً فهي تالث مدن الاسلام المقدسة : وهي قبلة الاسلام والمسلمين واليها اسرى ومنها عرج الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) وهي عنوان عزة وكرامة العرب المسلمين في مشرق الارض ومغربها وهي انشودة المجاهدين الاحرار الذين خفقت قلوبهم بحبها وتعلقت افئدتهم بها وبكوا حزناً والماً لما إلم بها من ويلات وخطوب على مر التاريخ وعلى رأس هؤلاء المجاهدين القائد البطل رجل المهمات الصعبة صلاح الدين الايوبي الذي نذر نفسه وماله من اجل غسل العار والذل الذي لحق بدار الاسلام والمسلمين على يد البغاة الاشرار والفرنج الصليبيين الاوائل عندما احتلوا مدينة القدس سنة(٤٢٩هـ / ١٠٣٦م) لذا فقد جاء بحثي ليسلط الضوء على القصائد الشعرية التي نظمها احد اعلام الفكر العربي الاسلامي في القرن السادس الهجري ابو عبد الله محمد بن محمد القرشي الاصبهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) المحدث الفقيه والشاعر والاديب والكاتب الوزير كان العماد فضلاً عن كونه مؤرخاً مشهوراً كان شاعراً بارزاً وشعره الطف من نثره بل كان بحراً لا ساحل له وكان فارس الشعراء الفحول في وصف المعارك وتصويره للاحداث الجسام التي شاهدها وعاصرها في اثناء مرافقته للابطال الشجعان في الدولتين النورية والصلاحية وانتصارات جيوشهما على جيوش الفرنج الصليبيين الذين بغوا في البلاد العربية الاسلامية حقبة طويلة من الدهر وقد خلدت لنا تلك القصائد المواقف الوطنية والجهادية في النهوض لحماية محارم الاوطان واخراج المعتدين الغزاة منها . كما تضمن البحث وبشكل مختصر الحديث عن حياته بدءاً من مولده حتى وفاته واهم مؤلفاته التي تركها لنا والتي لايزال الكثير منها مفقوداً .

اسمه ونسبه :

هو عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله ابن اله القرشي الاصبهاني[١] المعروف بابن اخي العزيز[٢] وقد لقب بالقاب عدة تدل على سمو مكانته العلمية والاجتماعية فقد لقب بشمس الاسلام والصدر الكبير وبالعماد الكاتب الاصبهاني وبالوزير والعلامة والامام والفقيه الشافعي[٣] .

مولده :

ولد العماد الاصبهاني في يوم الاثنين الثاني من شهر جمادي الاخرة سنة (٥١٩هـ / ١١٢٥م) باصبهان[٤] وبذلك يكون عماد الدين الاصبهاني عربي المحتد قريشي النسب اصبهاني المولد .

نشأته واسرته :

نشأ الاصبهاني في بيت رئاسة وكتابة وتقدم باصبهان قال السبكي (ت٧٧١هـ / ١٣٦٩م) ((من اهل اصبهان من بيت الرئاسة والسؤدد))[٥] وقد اشارت المصادر الى جده نفيس الدين الذي كان محباً للشعر العربي ومن شعره الحسن :

تولى الجهل وانقطع العتاب ولاح الشيب وافتضح الشباب

لقد ابغضت نفسي في شبابي فكيف تجني الخود الكعاب[٦]

كما ترجمت المصادر الى عمه الاكبر عزيز الدين ابو نصر احمد بن محمد المعروف بالمستوفى (ت ٥٢٦هـ / ١١٣٢م) ولذي كان شاعراً فصيحاً وجواداً كريماً ممدحاً ووزيراً خطيراً للسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٥هـ / ١١٣٠م) وفي ذلك قال ابن اخيه عماد الدين ((كان عمي في ذلك الوقت ينوب في الوزارة والاستيفاء لا يأنس السلطان الا به ولا يصغي الا لخطابه))[٧] . ومن مليح شعره ما كتبها الى بعض اصدقاءه :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا فأسانا بحسن عهدك ضناً

كم تمنيت لي صديقاً صدوقاً فاذا انت ذلك المتمنى

مبغصن الشباب تنثر فيه وبعهد الصبا وان بان عنا

كن جوابي اذا قرأت كتابي لا تقل للرسول : كان وكنا[٨].

وكان عمه العزيز من جلال شأنه وذيوع شهرته وبكونه من بيت كتابة وفضل بحيث العماد الاصبهاني اشتهر وعرف به بابن اخي العزيز[٩] ومع كل ما اتصف به من مكانة علمية وادارية فانه

لم يسلم من مؤامرات (رجال دولة السلطان،مما ادى الى مصادرته واخوته ثم اعتقاله وحبسه في قلعة تكريت وقتله وعمره خمسة وخمسون عاماً والتي كانت انذاك تحت سلطة وولاية نجم الدين ايوب واخيه اسد الدين شيركوه[١٠] اما عمه الثاني وهو الصغير بهاء الدين ابو طالب فقد تولى الوزارة للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (ت٥٤٦هـ/ ١١٥١م) وللاتابك اقاسنقر الاحمد يلي وخوارز مشاه (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م)[١١] ولم تشر المصادر الى تاريخ وفاته .

اما والد الاصبهاني محمد بن حامد الملقب بصفي الدين فقد كان هو الاخر من رجال الأدارة في ذلك الوقت لكنه حلف بعد نكبة اخيه العزيز إلا يخدم سلطاناً ولا يتولى ديواناً مدة عمره[١٢] .

اما والدته قد كانت هي الاخرى تنتمي الى احد البيوتات المشهورة باصبهان بالرئاسة والتقدم فهي بنت امين الدين علي المستوفي من رجال الدولة السلجوقية كان كاتباً لشرف الملك المستوفي (ت ٤٩٤هـ / ١١٠٠م) وفي ذلك قال العماد في كتابة تاريخ آل سلجوق ((كان جدي لامي امين الدين علي المستوفي رحمه الله كاتباً له في ريعان عمره وعنفوان امره الى ان صار بعد كاتباً لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه وكان يحدثني في صغري وهو شيخ كبير عن شرف الملك بكل ما يدل على سيادة نفسه ونفاسة سؤدده))[١٣] في بيت الرئاسة والعلم والكتابة في تلك الظروف السياسية المضطربة القاسية نشأ العماد الكاتب وتربي فبدأ دراسته مبكراً في بيئته ومسقط رأسه اصبهان اذ سمع على عدد من علماء وشيوخ عصره منهم شيخه ابو القاسم هبة الله بن محمد الشيباني البغدادي (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) الذي سمع منه واجازه وهو في السادسه من عمره او دونها .ومن شيخه ابو عبد الله محمد بن الفضل الفراوي النيسابوري (ت ٥٣٠هـ / ١١٣٥م) وهو في سن الحادية عشرة[١٤] .

وفي هذه الحقبة من دراسته الاولى وفي موطنه اصبهان اتقن العماد اللغتين الفارسية والعربية واجادهما وكان لذلك اثر كبير في مستقبل حياته العلمية والادارية .

وعندما تفتحت اكمام غرسه وتوسعت معارفه بدأ في ارتياد المحافل العلمية والمجالس الادبية واول محفل حضره وجاذب الحديث فيه كان في مدينة الموصل في العراق حيث زارها مع والده سنة (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) ومدح وزيرها ابو جعفر محمد بن علي الاصبهاني (ت ٥٥٩هـ / ١١٦٣م) في قصيدة وهي من اول نظمه اولها :

اظنهم وقد عزموا ارتحالاً ثنوا عنا جمالاً لا جمالاً

سروا والصبح مبيض الحواشي فلما حال عهد الوصل حالاً[١٥] .

وعندما بلغ العماد الخامسة عشر من عمره انتقل مع والده وعائلته سنة (٥٣٤هـ / ١١٤٠م) الى بغداد مدينة العلم والعلماء حيث استقر فيها مدة تقارب عقداً من الزمان لينهل من معارفها وعلومها وفي ذلك قال العماد ((نقلني والدي من اصفهان الى بغداد حين بنا بعد لنكبة نبأ الوطن

وضاق الوطن ولم نجد الامن والسلامة واليمن والكرامة الا في ظل الدار العزيزة النبوية والمقتفوية فسكن مدينة السلام واتخذ منها دار المقام وذلك في سنة اربع وثلاثين وخمس مائة وقد بلغت سني خمس عشر سنة))[١٦] وفي بغداد تفقه على عدد من العلماء في المدسية النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك السلجوقي في سنة (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) وفي المدرسة الثقتية التي انشأها ثقة الدولة ابن الدريني الابري سنة(ت ٥٤٩هـ / ١١٤٨م)[١٧] وفي سنة (٥٤٣هـ / ١١٤٨م) عاد العماد بمعية والده الى موطنه اصبهان وفي اثناء اقامته فيها زار مدينة همذان سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) ومن همذان خرج حاجاً الى الحجاز سنة (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) وبعد اداء فريضة الحج عاد الى همذان مرة اخرى سنة (٥٤٩هـ / ١١٥٤م)[١٨] ومنها الى اصبهان وفي ذلك قال شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ((ورجع الى اصبهان مكباً على العلم وتنقلت به الاحوال))[١٩] وفي اوائل شوال سنة(٥٤٩هـ / ١١٥٤م) خرج من اصبهان قاصداً مع والده بغداد حيث وصلها سنة (٥٥١هـ / ١١٥٦م) وقيل سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م) في عهد الخليفة العباسي المقتفي بالله (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)[٢٠] حيث توقفت مرحلة طلب العلم والمتابعة وبدأت حياة العمل والجمع والتأليف والتي امتدت حتى وافاهالاجل قال ياقوت الحموي سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) ((ثم رجع الى بغداد واشتغل بصناعة الكتابة وبرع فيها ونبغ))[٢١] وفي بغداد ارتفعت مكانته وعلا شأنه حيث ولاه الوزير عون الدين يجيى ابن هبيرة سنة (٥٦٠هـ / ١١٦٤م) نيابة النظر في اعمال العراق واسط ثم البصرة وفي ذلك قال العماد الاصبهاني ((ووليت بعد ذلك الاعمال الجليلة ووليت واسط نيابة عن وزيره عون الدين بن هبيرة))[٢٢] وبقى العماد في اعماله الادارية هذه حتى توفي الوزير ابن هبيرة فتقلبت به الاحوال واعتقل في الديوان ببغداد واخذ يستعطف الخليفة العباسي المستجد بالله (ت ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) بقصيدة طويلة بعثها من سجنه قال فيها:

قال للامام علام حبس وليكم اولوا جميلكم جميل ولائه

او ليس اذ حبس الغمام وليه خلي ابوك سبيله بدعائه[٢٣].

قال ((فامر باطلاقي وتوفير ارزاقي))[٢٤] وبعد خروجه من سجنه قرر ترك بغداد والسفر الى بلاد الشام لعله يجد مكاناً ينتفع به فوصل دمشق في شعبان سنة (٥٦٢هـ / ١١٦٧م) قال العماد الاصبهاني ((وكنت مدة مقامي ببغداد اتشوق الى تلقاء الشام واود لقاء اهل الفضل الكرام حتى وصلت الى دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة فوجدت الشام عادماً للعلماء الاعلام...))[٢٥] وفي بلاد الشام وجد العون المنشود في مدبر دولة الملك العادل نور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) قاضي القضاة كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) فهو الذي قربه للسلطان نور الدين وعرفه بشأنه حتى ثبته كاتباً في ديوان الانشاء وصار بمرور الزمن صاحب سره المكتوم حتى ارسله في بداية سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٧م) الى

بغداد رسولاً[٢٦] وهذه مهمة صعبة لا يكلف بها السلطان الا من اتسم بالامانة والثقة .وبعد عودته الى دمشق فوض اليه الملك العادل نور الدين سنة (٥٦٧هـ / ١١٧٢م) التدريس في المدرسة العمادية النورية الشافعية التي نسبت اليه فيما بعد قال ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) ((كان له مدرسة بدمشق يلقي فيه الدرس وحلقة بجامع دمشق للمناظرة))[٢٧] ومهمة الاشراف على ديوان الانشاء والاستنابة في ديوان الاستيفاء (وزارة المالية في الوقت الحاضر) ((فجمعت الانشاء والاشراف والاستيفاء))[٢٨] واستمر يتولى هذه الاعمال وتلك المراتب حتى وفاة نور الدين وتولى ابنه الملك الصالح اسماعيل اختل امر العماد وترك جميع ما هو فيه وخرج من الشام قاصداً الموصل بنية العودة الى بغداد في اوائل سنة(٥٧٠هـ / ١١٧٤م) قال ((ولما توفي نور الدين اختل امري واعتل سري وفاض دمعي.... وفي عزمي العود الى العراق وشاقني اليه لاعج الاشواق))[٢٩] وفي الوقت الذي وصل فه العماد الى الموصل وصل السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) الى دمشق ليحفظها من الفرنج وذلك في يوم الاثنين اخر شهر ربيع الاول سنة (٥٧٠هـ /١١٧٤م)فعزم العودة مرة اخرى الى دمشق من السنة نفسها قال ((هاجني الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم وده وخرجت من الموصل رابع جمادي الاولى وعبرت الخابور في مخاضة المجدل وجئت الى الرقة ودخلت الى دمشق في ثامن جمادي الاخرة وصلاح الدين نازل على حلب فنزلت في مدرستي وعدت الى منزلتي ... فاقمت حتى استقمت وصبرت الى ان عاد السلطان الىحمص وانتظرت طيب الزمان ومطاوعة الامكان وقصدت السلطان في شعبان ولزمت خدمته ارحل برحيله وانزل بنزوله واوصل حضرته وانشده شعري...))[٣٠] وتمكن العماد بواسطة القاضي الفاضل كاتب ووزير السلطان صلاح الدين الايوبي ابو علي عبد الرحيم علي البيساني (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م) ان يكون معاونه في ديوان الانشاء واحد وزراءه وها هي سرة[٣١] وبقي العماد ملازماً لخدمة السلطان وصحبه في حروبه وغزواته كلها وابصر بام عينه قهر جيوش الفرنج الصليبيين الاوائل في مصر والشام وتغنى بانتصارات جيوشه ومطاردته البغاة في كل مكان حتى وفاة السلطان في شهر صفر سنة(٥٨٩هـ / ١١٩٣م) حيث افل نجم العماد واستعفى من جميع مناصبه في عهد الملك الافضل نور الدين علي ابن صلاح الدين سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) حيث ترك دمشق ذاهباً الى مصر وبقي هناك الى اوائل سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) حيث تركها عائداً الى دمشق بعد الكوارث الطبيعية والامراض التي حلت بمصر وكان العماد يومئذ في الثامنة والسبعين من عمره حيث ادركته المنية وفارق الحياة[٣٢] .

شيوخه وتلاميذه :

اكثر العماد الاصبهاني من الرحلة في ارجاء العالم الاسلامي فرحل الى الحجاز والعراق والشام ومصر لتحصيل العلوم ولقاء المشايخ والعلماء وللعمل ايضاً فقد سمع باصبهان في طفولته

وشبابه من شيخه ابو القاسم هبة الله الشبياني (ت ٥٢٥هـ / ١١٣١م) ومن ابو عبد الله محمد بن الفضل الغراوي (ت ٥٣٠هـ / ١١٣٥م) كما مر ذكر ذلك ومن ابو عبد الله يحيى بن الحسن الحنبلي (ت ٥٣٠هـ / ١١٣٦م) وغيرهم[٣٣]. وفي بغداد يسمع من شيخه ابو الفتح محمد بن الفضل الاسفراييني (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م)[٣٤] ومن منصور سعيد بن محمد البغدادي(ت ٥٣٩هـ /١١٤٤م) ومن شيخه ابو عبد الله محمد بن علي المقرئ (ت ٥٤١هـ / ١١٤٦م) . ومن ابو بكر احمد بن علي المعروف بالاشقر (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) ابو العباس بن ابي محمد القاسم بن علي المعروف بالحريري (ت ٥٥٦هـ / ١١٦٠م)[٣٥] .وفي البصرة سمع من شيخه ابو علي الحسين بن ابي منصور بن حامد التميمي[٣٦] .

وفي دمشق سمع من المؤرخ الدمشقي ابو القاسم المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م)[٣٧] وفي مصر اجتمع بشيخه ابو طاهر احمد بن محمد السلفي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) ومن صدر الاسلام اسماعيل بن مكي الاسكندراني (٥٨١هـ / ١١٧٥م) وغيرهم خلق كثير[٣٨] اما اعلام الثقافة الاسلامية من الذين انتفعوا به انتفاعاً علمياً كبيراً ولازموه وحضروا مجالسه واقتدوا بافعاله واخلاقه الحميدة بعد ان ((فاق الاقران وحاز قصب السيف)) [٣٩] منهم على سبيل المثال لا الحصر القاضي عز الدين عمر بن العزيز القرشي (ت ٦١٥هـ / ١٢١٨م) وفتوح بن نوح (ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) وشهاب الدين اسماعيل بن حامد القوصي (ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م) وزكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المنذري (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) وطائفة اخرى[٤٠] .

مؤلفاته :

ترك لنا الاصبهاني عدد كبير من مؤلفاته التي نالت رضا واستحسان العلماء والباحيين قديماً وحديثاً وهي على النحو الاتي مرتبة حسب حروف المعجم :-

١. البرق الشامي في سبع مجلدات .
٢. البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان في مجلد .
٣. تعليقات وعظ العالم قطب الدين ابو منصور بن اردشير (ت ٥٤هـ / ١١٥٢م) .
٤. خريدة القصر وجريدة العصر في عشرة مجلدات.
٥. خطفة البارق وعطفة الشارق .
٦. ديوان رسائل في ثلاث مجلدات كبار .
٧. ديوان شعر كبير قيل مجلدين وقيل اربع مجلدات.
٨. ديوان شعر صغير دوبيت.

٩. زبدة النصرة ونخبة العصر .

١٠. السيل على الذيل يعني خريدة القصر في ثلاث مجلدات.

١١. عتبي الزمان في عقبي الحدثان .

١٢. الفتح القسي في الفتح القدسي في مجلد وقيل مجلدين .

١٣. مجموعة اشعار عمه عزيز الدين ابو نصر احمد بن محمد المستوفي .

١٤. مناظرات الامام ابو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي لابي الحسن علي بن محمد المعروف بالكيا الهراسي الفقيه لشافعي .

١٥. نحلة الرحلة وحيله المعطلة .

١٦. نصرة الفترة وعصرة الفطرة[٤١] .

مكانته الادبية وآراء العلماء فيه :

مما لا شك فيه ان العماد الاصبهاني كما لهج في علم التاريخ وألف فيه تصانيف مهمة فقد لهج ايضاً في الادب والشعر والنثر وألف في ذلك بعض التصانيف منها كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) و (ديوان شعره الصغير والكبير) وغيرها وقد وصف مكانته الادبية تلميذه المنذري بقوله (كان جامعاً لفضائل الفقه والادب والشعر الجيد وله اليد البيضاء في النثر والنظم))[٤٢] واثنى عليه ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) بقوله ((اتقن الخلاف وفنون الادب وله من الشعر والرسائل ما يغني من الاطالة في شرحه))[٤٣] ووصفه الذهبي بقوله ((العماد امام البلغاء وشمس الشعراء وقطب رحى الفضلاء اشرقت اشعة فضائله انارت وانجدت الركبان باخباره واغارت هو في الفصاحة قس دهره وفي البلاغة سيحان عصره فاق الانام طرا نظماً ونثراً))[٤٤] وذكره الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) ((ولعمري لقد كان ذا قدرة على النظم والنثر واكثر منهما وارى ان شعره الطف من نثره لانه اكثر من الجناس فيه))[٤٥] ومدحه ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) بقوله ((له النظم البديع الرائق واليد البيضاء في النثر الفائق))[٤٦] .

القدس في شعر العماد الاصبهاني :

كان العماد الاصبهاني شاعراً بارزاً وشعره ألطف من نثره بل كان بحراً ساحل له وكان فارس الشعراء الفحول في وصف المعارك وتصويره للاحداث عصره التي شاهدها ففي اثناء مرافقته للابطال الشجعان في الدولتين النورية والصلاحية وانتصارات جيوشهما على جيوش الفرنج الصليبيين الاوائل الذين بغوا في البلاد العربية الاسلامية حقبه طويلة من الدهر وقد خلدت تلك القصائد المواقف الوطنية والجهادية والهبت الحماس في النهوض لحماية محارم الاوطان ومطاردة البغاة في كل مكان

واخراجهم من البلاد الاسلامية .وان ديوان شعره الكبير والصغير لا يزالان مفقود ان ولكن الدكتور ناظم رشيد جمع ما جمعه من شعر العماد الاصبهاني وطبعه في كتاب يحمل عنوان (ديوان عماد الدين الاصبهاني) والذي يضم على (٢١٢) قصيدة[٤٧] .

وقد حظيت مدينة القدس الشريف خاصة وابطال الدولتين النورية والصلاحية الذين كان لهم اليد البيضاء في تحرير القدس من المعتدين الاشرار عامة بمكانة كبيرة في شعر العماد الاصبهاني حيث رافقهم في حروبهم وغزواتهم كلها وابصر بأم عينه قهر جيوش الفرنج في مصر والشام فتغنى بانتصارات جيوشهم وطرد البغاة منها ومن الجدير بالذكر كان العماد من ابرز الشعراء الذين رافقوا الملك العادل نور الدين زنكي ومدحوه وسجلوا مأثره وانتصاراته كما وان العماد ادرك ان اعداء الله والاسلام الفرنج وغيرهم من الصليبيون يخشون الوحدة واتحاد العرب المسلمين ويعلمون جيداً انها تقصم ظهورهم وتبدد شملهم وتخرجهم من المنازل والبلاد التي دخلوها عنوة لذلك نرى العماد ينظم قصيدة من (٢٨) بيتاً يهنأ فيها الملك العادل بملك مصر ويدعوه الى الوحدة وتحرير القدس منها :

بملك مصر اهني مالك الامم فاسعد وابشر بنصر الله عنأم

أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما وهل بعد لك شيء غير ملتئم

يافاعل الخير عن طبع بلا كلف ومولي العرف عن خلق بلا سأم

لله درك نور الدين من مسلك بالعزم مفتتح بالنصر مختتم

أثار عزمك في الاسلام واضحة وسره لك باد غير مكتتم

بما من العادل والاحسان تنشره تخاف ربك خوف المذنب الاثم

أوردت مصر خيول النصر عادمة ثني الاعنة اقداما على اللجم

لقد شفت غلة الاسلام وانتقمت من العدو بحد الصارم الحذم

اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحكم

وطهر القدس من رجس الفرنج وثب

على البغاث وصوب الاجول القطم

فملك مصر وملك الشام قد نظما

في عقد عز من الاسلام منتظم(٤٨)

ومدحه العماد ايضاً بقصيدة من عشرة ابيات شعر لاعادته الامن والاستقرار لمدينة منبج(*) التي ستكون فاتحة لتحرير البيت المقدس من البغاة الاشرار قال :

بشرى الممالك فتح قلعة منبج

فليهن هذا النصر كل متوج

اعطيت هذا الفتح مفتاحا به

في الملك يفتح كل باب مرتج

ابشر فبيت القدس يتلو منبجا

ولمنبج نسواه كالا نموذج

فانهد الى البيت المقدس غازيا

وعلى طرابلس ونابلس عج

قد سرت في الاسلام احسن سيرة

مأثورة وسكت اوضح منهج

وجميع ما استقريت من سنن الهدى

جددت منه كل رسم مبهج(٤٩)

وقد نظم قصيدة في نور الدين ايضاً من (٣٨) بيتاً ذكر فيها امنية نور الدين في الحياة هو استرداد البيت المقدس من الفئة الباغية التي دنست الارض المقدسة ولكن المنية ادركته قبل بلوغ الامنية قال فيها :

الدين ظلم لغيبة نوره والدهر في غم لفقد اميره

فليندب الاسلام حامي أهله والشام حافظ ملكه وثغوره

ما اعظم المقدار في أخطاره اذ كان هذا الخطب في مقدوره

ما اكثر المتأسفين لفقد من قرت نواظرهم بفقد نظيره

من ينصر الاسلام في غزواته فلقد اصيب بركنه وظهيره

من للفرنج من لاسر ملوكها من الهدى يبغي فكاك اسيره

من للبلاد ومن لنصر جيوشها من للجهاد ومن لحفظ اموره

ما كنت احسب نور الدين محمد يخبو وليل الشرك في ديجوره

ازهدت في دار الفناء واهلها ورغبت في الخلد المقيم وحوره

او ما وعدت القدس انك منجز ميعاده في فتحه وظهوره

فمتى تجير القدس من دنس العدا وتقدس الرحمن في تطهيره(٥٠)

ومن مليح شعره ما قاله في مدح صلاح الدين الايوبي وتهنئة بالملك وتعزيته بوفاة عمه اسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ :

أبا يوسف الاحسان والحسن خير من حوى الفضل والافضال والنهي والامرا

هزمتهم جنود المشركين برعبكم فلم يلبثوا خوفاً ولم يمكثوا ذعراً

وفرقتهم من حول مصر جموعهم بكسر وعاد الكسر من اهلها جبراً

وامنتم فيها الرعايا بعد لكم واطفأتم من شر شاورها الجمرا

بسفك دم حطمتم دماء كثيرة وحزتم بما ان ابديتم الحمد والشكر

وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا لكم من دماء الغادرين بها غدرا

فصبوا على الافرنج سوط عذابها بان تقسموا ما بينها القتل والاسر

ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا على فتحة غازين وافترعوا البكرا

تديمون بالمعروف طيب ذكركم وما الملك إلا ان تديموا لكم ذكرا(٥١)

وفي سنة(٥٨٢هـ / ١١٨٦م) نظم العماد الاصبهاني قصيدة في مدح تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين الايوبي قال فيها :

ولا يفتح البيت المقدس غيركم وبيتكم من كل عاب مقدس

هم كل يوم في جهاد مثلث اذا نصروا التوحيد فجاء مخمس

اذا ما تقي الدين صال تساقطت لاقدامه من عصبة الشرك الرؤس

وما عمر إلا شبيه سمية شديد على الاعداء ثبت العمر(٥٢)

وبلغ العماد الكاتب الشاعر في مدائحه للبطل صلاح الدين الايوبي القمة فهو الذي قاد الجيوش العربية الاسلامية ودوخ بها اعداء الله والدين وكسر شوكتهم وحطم قلاعهم وحصونهم وكبرياءهم وطردهم من البيت المقدس فمن ذلك قصيدته التي بلغت (٩٨) بيتاً وفي كل مناسبة لا

يستطيع العماد كعربي مسلم شريف غيور ان ينسى مأساة القدس الشريف او يسلو عنها لذا نراه فيها يدعو صلاح الدين الايوبي الى التوجه اليها لتخليصها منها ما قاله :

لك الله في كل ما تبتغيه بحق ظهير ونعم الظهير

ويوم الفرنج اذا ما لقوك عبوس برغمهم قمطرير

نهوضا الى القدس يشفي الغليل بفتح الفتوح وماذا عسير

سل الله تسهيل صعب الخطوب فهو على كل شيء قدير

اليك هجرت ملوك الزمان فما لك والله فيهم نظير

وفجرك فيه القرى والقرآن جميعا وفجر الجميع الفجور

وانت تريق دماء الفرنج وعندهم لا تراق الخمور(٥٣)

وقد ترقى العماد الذرى في قصيدته السينية التي نظمها يوم فتح صلاح الدين الايوبي ابواب القدس الشريف ودخلها ورايات النصر والعز تعلو خفاقه فوق هامات جنوده البسلاء سنة(٥٨٣هـ) وقد بلغت (٦٢) بيتاً منها :

اطيب بانفاس تطيب لكم نفسا وتعتاض من ذكراكم وحشتي انسا

وأسال عنكم بما عافيات دوارس غدت بلسان الحال ناطقة خرسا

فلا تجسسوا عني الجميل فانني جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين افضل من غدا واشرف من اضحى واكرم من امس

وقيل لنا في الارض سبعة ابحر ولسنا نرى الا انامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضا

وبطشته الكبرى وعزمته القصسا

فلا عدمت ابا منا منه مشرقا

ينير بما يولي لياليا الدما

جنودك املاك السماء وطنهم

عداتك حين الارض في الفتك لا الانسا

فلا يستحق القدس غيرك في الورى

فلا عدمت اخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم

فاذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس ارضها

والبستها الدين الذي كشف اللبسا

وعادت بيت الله احكام دينه

فلا بطركا ابقيت فيها ولا قسا

وقد شاع في الافاق عنك بشارة

بأن اذان القدس قد ابطل النقسا

حططت على حطين قدر ملوكهم

ولم تبق من اجناس كفرهم جنسا

بواقعت رجت بها الارض جيشهم

دمارا كما بست جبالهم بسا

بطون ذناب الارض صارت قبورهم

ولم ترض ارض ان تكون لهم رمسا(٥٤)

وخلاصة القول فان العماد الاصبهاني ابو عبد الله محمد عربي النسب اصبهاني المولد نشأ وتربى في بيت علم ورئاسة وكتابة وله مكانته العلمية والادارية بين بيوتات اهل اصبهان وكان لوالده اثر كبير في تعريفه بشيوخ عصره الذين اخذ عنهم العلم منذ نعومه اظفاره واصبح بذلك اثر كبير في نمو شخصيته العلمية وانقطاعه الى الدرس وتردده الى اصحاب العلم والمعرفة وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من طلاب العلم الذين كان لهم مكانتهم العلمية فيما بعد وقد تبين لنا ايضاً ومن خلال مؤلفاته الكثيرة التي تركها لنا لم يكن العماد الاصبهاني مؤرخاً مشهوراً فحسب بل كان شاعراً بارزاً ومن فحول الشعراء الذين يستحقون الثناء والتقدير لان ما نظمه من شعر جاء ليعكس لنا صورة للاحداث الجسام التي شاهدها العماد الاصبهاني وعاصرها وابصرها بام عينه التي ألمت بالعالم العربي الاسلامي آنذاك من جراء غزو وسيطرة الفرنج الصليبيين الاوائل على الشام بصورة عامة

وفلسطين والقدس بصورة خاصة والى جانب ذلك فان شعر الاصبهاني كان يصور لنا حياته الخاصة وما فيها من حماس وشعر عربي وطني لتحرير الاراضي العربية المسلوبة من الغزاة الاشرار . كما خلدت لنا تلك القصائد المواقف الوطنية والجهادية في النهوض لحماية محارم الاوطان من دنس الاعداء البغاة واخراج المعتدين منها .

هوامش البحث :

١. ابن خلكان . ابو العباس احمد بن محمد الشافعي (ت ٦٨١هـ) . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٤٨م ، ص٢٣٣ .ابن الفوطي .ابو الفضل عبد الرزاق بن احمد الشيباني (ت ٧٢٣هـ). تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ،وازرة الثقافة والارشاد ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ج٤ ، ق٢٠ ، ص٨٤٥. الزركلي . خير الدين . الاعلام ، ط٣ ،بلا . ت ،ج٧ ، ص٢٥٣ .

٢. ابن تغري بردي . يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤هـ). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ج٥، ص٢٤٩.

٣. الاصبهاني . عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد (٥٩٧هـ) . خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) ، تحقيق د. شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ،دمشق ، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م ، ج١ ،ص١٥ .المقدمة. ياقوت الحموي. شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ). معجم الادباء (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) ، دار المستشرق ، بيروت ، لبنان، بلا. ت، ج١٩، ص١١. الذهبي : ابو عبد الله محمد بن عثمان الدمشقي (ت ٧٤٨هـ) . العبر في خبر من غبر، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،بلا .ت ، ج٣ ، ص١٢. اليافعي. ابو عبد الله محمد بن اسعد (ت ٧٦٨هـ) . مرأة الجنان وعبرة اليقظان ، ط٢ ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ،لبنان ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م ، ج٣ ، ص٤٩٢. ابن العماد الحنبلي . ابو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت، بلا . ت ، ج٤ ، ص٣٣٢ .

٤. ياقوت الحموي. معجم الادباء ، ج١٩، ص١١ .ابن خلكان. وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص٢٣٨. الاسنوي. جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢هـ) . طبقات الشافعية ، تحقيق عبد الله الجبوري ، ط١ ، مطبعة الارشاد، بغداد ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، ج٢ ، ص٣٥٥ . بدوي . أحمد . الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط١ ،مطبعة نهضة مصر، مصر ، ١٩٥٤م ، ص٣٧٢ .

٥. السبكي .تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ) . طبقات الشافعية الكبرى ،ط٢ . دار المعرفة ،بيروت ، لبنان ، بلا .ت، ج٤ ، ص٩٨ .

٦. ابن الجوزي . شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ) . مراة الزمان في تاريخ الاعيان، ط١ ،مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،جيدر اباد الدكن ،الهند، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٢م ، ج٨ ، ق٢ ، ص٥٠٥ .

٧. البنداري . الفتح بن علي الاصبهاني (ت ٦٤٣هـ). تاريخ دولة أل سلجوق، ط٢ ، دار الافاق الجديدة، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص١٢٣ .

٨. ابن الجوزي . مراة الزمان في تاريخ الاعيان ، ج٨ ، ق٢ ، ص١٤١.

٩. ابن تغري بردي .النجوم ،ج٥ ، ص٢٤٩ .

١٠. الاصبهاني . الخريدة ، ج١ ، ص١٥ . البنداري .تاريخ ، ص١٥٦ .

١١. البنداري .تاريخ ، ص١٦٨.

١٢. م . ن . ص١٦٨.

١٣. م . ن . ص٣٤ .

١٤. ياقوت الحموي . معجم الادباء ، ج١٩ ، ص١٢ . السبكي . الطبقات، ج٤ ، ص٩٧ .

١٥. البنداري .تاريخ ، ص١٩٤ -١٩٥ .

١٦. الاصبهاني .خريدة (قسم العراق) ، تحقيق . محمد بهجة الاثري وجميل سعيد ،مطبعة المجمع العلمي العراقي ،بغداد ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، ج٢ ، ص٥٣ - ٥٤ .

١٧. م . ن ج١ . ص١٤٥ .

١٨. البنداري .تاريخ ، ص٢٢٤ .ابن الجوزي . المراة ،ج٨ ، ق٢ ، ص٥٠٥.

١٩. سير اعلان النبلاء . تحقيق بشار عواد معروف ،ومحي هلال السرحان ، ط١ ،مؤسسة الرسالة ، العراق ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م / ج٥ ، ص٣٤٦ .

٢٠. الاصبهاني . الخريدة(العراق) ،ج١ ، ص٣٦ .

٢١. معجم الادباء .ج١٩ ، ص١٢ . السبكي . الطبقات . ج٤ ، ص٩٧ .

٢٢. الاصبهاني . الخريدة(العراق) ،ج١ ، ص٣٦ .

٢٣. م . ن . ج١ ، ص٦٣ وانظر : ص١٧٢ .

٢٤. م . ن .ج١ ، ص٦٣ .

٢٥. م. ن . ج١ . ص١٠ (الشام) .

٢٦. البنداري . سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن ،ط١ ،دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان ، ١٩٧١ ، ج١ ، ص٦٧ ، ص٩٤ .

٢٧. التلخيص ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٤٥ .

٢٨. البنداري . سنا البرق الشامي ، ج١ ، ص١٣١.

٢٩. م. ن . ج١ ، ص١٥٩ -١٦٠ .

٣٠. م. ن . ج١ ، ص١٨٤ -١٨٥ .

٣١. م. ن . ج١ ، ص١٩٤ . ابن الفوطي . التلخيص ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٤٥ .

٣٢. ابو شامة. شهاب الدين اسماعيل بن عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٦٥هـ) . الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية. نشر عبد الرحمن بن اسماعيل ، مطبعة وادي النيل، القاهرة ، ١٢٨٧هـ / ١٣٨٨م ،ج٢ ، ص٢٣٨ -١٤٠ .

٣٣. ياقوت الحموي . معجم الادباء، ج١٩ ، ص١٢ . المنذري . زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ). التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج١ ، ص٣٩٢ .

٣٤. المنذري . التكملة ، ج١ ، ص٣٩٢ .

٣٥. ياقوت الحموي . معجم الادباء، ج١٩ ، ص١٢ .

٣٦. الاصبهاني : الخريدة ، ج١ ، ص٢٩ -٣٠ .

٣٧. ابن الجوزي . المرأة ، ج٨ ، ق٢ ، ص٥٠٥ .

٣٨. المنذري . التكملة ، ج١ ، ص٣٩٢ .

٣٩. الذهبي .العبر ، ج٤ ، ص٢٩٩ .

٤٠. المنذري. التكملة، ج١، ص٣٩٢ . ابن الساعي. ابو طالب علي بن انجب (ت ٦٧٤هـ) . الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، عني بنشره مصطفى جواد ، المطبعة السريانية، الكاثوليكية ، بغداد ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، ج٩ ، ص٦١. الذهبي . السير، ج١٥ ، ص٣٤٦ .

٤١. ياقوت الحموي. معجم الادباء، ج١٩، ص ٢٠. البنداري. سنا البرق، ج١، ص١٥-٢٢. ابن خلكان .الوفيات ، ج٤ ، ص٢٣٥. الذهبي. السير ، ج١٥ ، ص٣٤٦ - ٣٤٧ . الصفدي. صلاح الدين بن ايبك (ت ٧٦٤هـ) .الوافي بالوفيات ، اعتناء هملوت ريز ، ط٢ ، دار النشر فرانز ، بفيسبياون ، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م ، ج١ ، ص١٤٠ . حاجي خليفة . مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ) . كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، ط٣ ، المطبعة الاسلامية ، طهران ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، م١ ، ص٢٣٩ ، ٢٨٨ ، ٨٠٣ ، م٢ ، ص٩٥٤ ، ١٣١٦ ، ١٩٥٦ .

٤٢. التكملة ، ج١ ، ص٣٩٣ .

٤٣. الوفيات ، ج٤ ، ص٢٣٣ .

٤٤. السير ، ج١٥ ، ص٣٤٨ .

٤٥. الوافي ، ج١ ، ص١٣٣.

٤٦. ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ) .تاريخ ابن الفرات ،تحقيق حسن محمد الشماع ، دار الطباعة الحديثة ، البصرة ،١٣٨٩هـ /١٩٦٩م ، م٤، ج٢ ، ص٢٢٠ .

٤٧. طبع الكتاب في كلية الاداب ، جامعة الموصل سنة١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

٤٨. رشيد . ديوان عماد الدين الاصبهاني ، ص٣٨٠ وما بعدها .

(*) منبج . وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وارزاق واسعة بينها وبين حلب عشرة فراسخ . انظر ياقوت الحموي . معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، بلا .ت ، ج٥ ، ص٢٣٨ .

٤٩. رشيد . ديوان،ص١٠٢ -١٠٣ .

٥٠. م . ن. ص٢١٢ وما بعدها .

٥١. م . ن. ص١٥٩ وما بعدها .

٥٢. م . ن. ص٢٣٦ وما بعدها .

٥٣. م . ن. ص١٨٥ وما بعدها .

٥٤. م . ن. ص٢٣٠ وما بعدها .